

الملكة البلاغية وأثرها في فهم إعجاز القرآن

Rhetorical Competence and Its Impact on Understanding the Inimitability of the Qur'an

إسلام ميلاط¹¹المركز الجامعي مغنية (الجزائر) www.milatislam682@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/08

تاريخ القبول: 2026/04/08

تاريخ الاستلام: 2026/02/23

ملخص:

يعالج هذا البحث أثر تحصيل الملكة البلاغية في فهم إعجاز القرآن الكريم، وذلك من خلال الكشف عن الصلات الوثيقة بين التكوين البلاغي للدارس وقدرته على تذوق الأساليب القرآنية واستيعاب دلالاتها العميقة. وقد اعتمد البحث على المنهج التحليلي لكشف هذا الأثر، وخلص إلى جملة من النتائج أهمها: أنّ الملكة البلاغية شرط معرفي لفهم إعجاز القرآن، وأن إدراك الإعجاز هو حقيقته يبقى نسبيا بالنسبة للدارسين إذ تبين أنّه يتفاوت بتفاوت رسوخ الملكة وقوة الذوق اللغوي، وأن إعجاز كلام الله يتجاوز حدود التعليل الكامل أو الحصر النهائي، إذ يبقى على تعاقب الأزمنة تجربة تذوقية تتجدد بتجدد المتلقي. كلمات مفتاحية: الملكة البلاغية، إعجاز القرآن، التذوق، الدلالة، الخصائص الأسلوبية.

Abstract:

This study examines the impact of acquiring rhetorical competence on deepening the understanding of the Qur'an's inimitability (i'jāz). It explores the close relationship between a scholar's rhetorical formation and their ability to appreciate Qur'anic stylistic features and grasp their profound meanings. The research adopts an analytical method and arrives at several key findings. Most notably, it concludes that rhetorical competence constitutes both an epistemological and methodological prerequisite for understanding the Qur'anic inimitability; that the perception of i'jāz is inherently relative, varying according to the degree of one's rhetorical mastery and linguistic sensibility; and that the Qur'an's inimitability ultimately transcends exhaustive explanation or definitive categorization, remaining, in its essence, an ever-renewed aesthetic experience shaped by the act of reception.

Keywords: Rhetorical faculty, the miraculous nature of the Qur'an, aesthetic appreciation, meaning (semantics), stylistic features.

المؤلف المرسل: إسلام ميلاط

1. مقدمة:

من نافلة القول التنبيه على أنّ البلاغة في جوهرها علم يُعنى بتنظيم العلاقة بين القول وسياقه، على نحوٍ يضمن توافق الخطاب مع مقتضيات المقام، وتحقيق الملاءمة الدقيقة بين المعنى والصياغة، وإذا كان القرآن الكريم قد شكّل منذ نزوله ميدان التحديّ البلاغيّ الأسى، فإنّ سرّ إعجازه البياني لا يمكن أن يُدرك بمجرد المعرفة القاعدية أو الإحاطة الاصطلاحية، وإنما يتجلّى بقدر ما يترسّخ في النفس من ملكةٍ بلاغية تُنمي الذوق، وتصلّق الحسّ، وتدرّب العقل على استكناه وجوه النظم وروابط المعاني.

وقد تنبّه أعلام البلاغة وفي طليعتهم عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ الإعجاز إنما يُدرك عبر النظر في النظم، واستحضار العلاقات الدقيقة بين التراكيب والسياقات، كما أكّد الزمخشري في تفسيره الكشف على مركزية الحسّ البلاغي في الكشف عن أسرار البيان القرآني. من هنا تنبع أهمية هذا البحث، إذ يسعى إلى بيان أنّ الملكة البلاغية وسيلةٌ أساسية لاستكشاف الأبعاد الإعجازية في الخطاب القرآني، واستجلاء الخصائص الأسلوبية التي تفرّد بها.

1. 1 إشكالية البحث: ينطلق هذا البحث من الإشكال الرئيس الآتي: إلى أيّ مدى تُعدّ الملكة البلاغية شرطاً لازماً لفهم إعجاز القرآن الكريم؟

ويتفرّع عن هذا السؤال المركزي سؤالان اثنان: أولهما: هل يمكن إدراك الإعجاز القرآني إدراكاً علمياً موضوعياً دون تحصيل ملكةٍ بلاغية راسخة؟ وثانيهما: ما طبيعة العلاقة بين الذوق البلاغي والتحليل المنهجي في الكشف عن وجوه الإعجاز؟

1. 2 أهداف البحث: يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف لعلّ أهمّها:

. إبراز أنّ التكوين البلاغي المتين يشكّل المدخل الطبيعي لفهم الإعجاز البياني للقرآن الكريم، إذ لا ينكشف سرّ النظم ولا تتجلّى دقّة التراكيب إلّا لمن امتلك أدوات التحليل ووعى مقتضيات الخطاب.

. تحليل الكيفية التي يؤثر بها اختلاف درجات الملكة البلاغية في تنوّع طرائق التلقّي ومستويات الإدراك، مبيّناً أنّ الفهم القرآني في حقيقته هو مدارج تتفاوت بتفاوت الاستعداد العلمي والذوقي، فبقدر ما تتعمّق الملكة وتتسع آفاقها، يتعمّق الفهم ويتكشف من المعاني ما كان خافياً، وتتجلّى من وجوه الإعجاز ما لا يدركه النظر السطحي.

. تأكيد أنّ الإعجاز القرآني لا ينحصر في وجهٍ واحد، ولا يُستنفد بتحليلٍ مهما بلغ من الدقّة، بل يظلّ متجدّد الدلالة، مفتوح الآفاق، تتكشف أسرارته بتجدّد النظر وتعمّق الملكة.

1. 3 منهج البحث: اعتمد البحث منهجاً تحليلياً تفسيرياً، كما استعان في بعض الأحيان بالمنهج النقدي، بهدف الكشف عن أثر الملكة البلاغية في إدراك الإعجاز القرآني، وتبيين العلاقة العضوية بين التكوين البلاغي ومستوى الفهم والإدراك.

2. الملكة البلاغية شرطاً في إدراك الإعجاز:

إذا تأمل الناظر وجوه الإعجاز في الخطاب القرآني، فسيجد حتماً أنّ الوجه البلاغي هو الميدان الذي يتجلى فيه التفرد القرآني على نحو دائم، فهو الحاضر الثابت في كل تركيب لغوي، وكل نسق بياني، وكل سياق دلالي، ولا غرابة في ذلك، فالقرآن الكريم قد خاطب الفطرة، وتحدى الفصاحة، وجاء بأسلوب يعجز أرباب البيان عن الإتيان بمثله مهما أوتوا من أدوات اللغة ومواهب التعبير، بل إنهم يقفون أمام نظمه وقفةً المتحيز الذي يدرك علو المرتبة ولا يهتدي إلى سبيل المحاكاة.

وانطلاقاً من هذا تتجلى أهمية الملكة البلاغية بوصفها الأداة الفاعلة التي تمكّن الباحث أو المتذوق من النفاذ إلى النصّ القرآني، واستيعاب تراكيبه ودلالاته، مما يفضي إلى رؤية متكاملة لبلاغة القرآن، ويجعل الإعجاز فيه أمراً محسوساً، إذ كلما ترقّت الملكة، اتسعت آفاق الكشف، وتجلت معاني الإعجاز في مواضع قد تغيب عن الذوق اللغوي القاصر، أو النظر البياني السطحي.

ولعلّ أول لفظة إلى هذه الحقيقة المعرفية نجدها عند أبو هلال العسكري (ت 385هـ) فقد أدرك بوضوح أنّ الوقوف على أسرار الإعجاز القرآني لا يتحقّق إلا لمن أوتي حظاً وافراً من علوم البلاغة وأدوات البيان. يقول: رحمه الله: "واعلم . علمك الله الخير. أنّ أحق العلوم بالتعلّم وأولها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة الذي يعرف به إعجاز كتاب الله تعالى ... وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله من حسن التأليف، وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، إل غير ذلك من محاسنه التي عجز عنها الخلق" (العسكري، 1419 هـ، صفحة 2).

فهو يرى كما يتضح من كلامه أنّ البلاغة تُرَيّ المتأمل لفهم إعجاز القرآن فهما واعياً، يتجاوز التلقي الانفعالي إل التذوق النقدي القائم على العلم والتمكّن، وإنّ من لا يتقن أدوات البلاغة، ولا يملك ملكتها، يبقى إدراكه لإعجاز القرآن ناقصاً أو مشوّشاً، لأنّه لا يستطيع التفرقة بين جمال التعبير المعجز، وصياغة الكلام البشري، مهما بلغت فصاحته.

وعلى ذات الشاكلة، يؤكّد القاضي الباقلاني (ت 403هـ) هذا المعنى، فينبه إل أن الملكة اللغوية بصفة عامة البلاغية بصفة خاصة شرط ضروري لإدراك الإعجاز، حتى لمن كان ناطقاً بالعربية، فهو يرى أن من لم يبلغ مرتبة الفصاحة في اللسان، ولم يُحط علماً بأساليب العرب ووجوه التصرف في اللغة، فهو في حكم الأعجمي من حيث العجز عن تذوق الإعجاز. يقول في هذا الشأن: "إن من كان من أهل اللسان العربي، إلّا أنه ليس يبلغ في الفصاحة الحدّ الذي يتناهى إل معرفة أساليب الكلام، ووجوه تصرف اللغة، وما يعدونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره، فهو كالأعجمي في أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن" (الباقلاني، 1977، صفحة 113).

وفي الاتجاه نفسه، يأتي جهد ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) ليضيف لبنة مهمة في بناء التّصور العلمي للفصاحة بوصفها مدخلا لفهم الإعجاز القرآني، ففي مقدمة كتابه "سرّ الفصاحة" يبيّن أنّ الغاية من هذا المؤلّف هي الكشف عن الجوهر الخفي للفصاحة، والتأسيس لفهم عميق لطبيعتها وموقعها في بنية الكلام العربي، ولا سيما في القرآن الكريم. ولا يلبث الخفاجي أن يبيّن أنّ الفصاحة تحتل منزلة محورية من وجهتين متكاملتين:

أولاً: من الجانب الأدبي؛ حيث تُعد الفصاحة معياراً لفهم بنية الخطاب وتراكيبه، وتمييز الجيد من الرديء، والتمكّن من النقد والتقويم والتأليف بأسلوب سليم، فهي الأداة التي تُمكن الناقد أو الأديب من تحليل النصوص ومقاربتها بلاغياً بدقة ووعي.

ثانياً: من الجانب الشرعي والإعجازي، إذ إنّ القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي بعث بها النبي محمد ﷺ، مهما اختلفت آراء العلماء في طبيعة الإعجاز سواء قيل إنه إعجاز في الفصاحة بذاتها، أو من جهة الصرفة الإلهية عن معارضته وفي كلا الاتجاهين، يرى الخفاجي أنّ الإحاطة بمفهوم الفصاحة ومعاييرها ضرورة لا غنى عنها، لأنها هي التي تمكّن من التمييز بين البيان البشري والبيان الإلهي، وتبّز الحدّ الفاصل بين ما تطيقه قدرات البشر، وما يتجاوزها إعجازاً وبلاغة (الخفاجي، 1982، صفحة 3). وبهذا يسهم "سرّ الفصاحة" في تأكيد ما تضافرت عليه أقوال البلاغيين من أنّ التمكن من علوم البيان ضرورة شرعية وعقلية لفهم الإعجاز القرآني على وجهه الصحيح، وهو ما يعيدنا إلى مركزية الملكة البلاغية ودورها في الكشف عن أبعاد هذا الإعجاز.

وعلى هذا النحو يمضي العلويّ مبرزاً بوضوح البعد الديني لعلم البلاغة، ومبيّناً أن من أعظم مقاصد هذا العلم وأشرف غاياته تحقيق الفهم الصحيح لإعجاز القرآن الكريم ومعجزة النبي ﷺ البيانية. يقول ما مضمونه: "واعلم أنه (أي علم البلاغة) يراد لمقصدتين: المقصد الأول منهما: مقصد ديني، وهو الاطلاع على معرفة إعجاز كتاب الله، ومعرفة معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لا يمكن الوقوف على ذلك إلا بإحراز علم البيان، والاطلاع على غوره، فإنّ هذا العلم من أشرف العلوم في المنقّبة، وأعلاها في المرتبة" (العلوي، 1423هـ، صفحة 20).

فالعلوي يؤكد أنّ بلوغ هذا المستوى من الإدراك لا يتيسّر إلا لمن تمكّن من أدوات البيان، وتوغّل في أعماق البلاغة، حتى يصير قادراً على التفاعل مع النصّ القرآني تفاعلاً واعياً يكشف له عن دقائق الإعجاز، وبذلك يلتقي رأي العلويّ مع ما قرّره كل من سبقه، من أنّ الملكة البلاغية تمثّل شرطاً أساساً لفهم الإعجاز، لا تكفي فيه المعرفة السطحية، بل تشترط فيه الخبرة البلاغية العميقة والذوق الراسخ.

وفي امتداد لرؤيته السابقة، يقدّم العلويّ في تعريفه لعلمي البيان والمعاني تصوّراً واضحاً لهذا العلم بوصفه الأداة المعرفية الأساسية لفهم الإعجاز القرآني، يقول: "هو العلم الذي يمكن الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز، لأنّ الإجماع منعقد من جهة أهل السنة على أنه لا سبيل إل الاطلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقرير قواعد الفصاحة والبلاغة إلاّ بإدراك هذا العلم وإحكام أسسه" (العلوي، 1423هـ، صفحة 11).

إنّ هذا القول يؤكّد مجدّداً على ما سبقت الإشارة إليه من أنّ الملكة البلاغية لا تتأتّى دون تعلم عليّ البيان والمعاني، إذ هما اللذان يكسبان المتلقّي القدرة على النفاذ إلى بنية النصّ، والكشف عن أوجه الإعجاز فيه كشافاً يقوم على أسس معرفية دقيقة، وهكذا تتعرّز المكانة المعرفية والمنهجية لعلم البلاغة كوسيلة ضرورية لفهم أعمق أسرار النصّ القرآني.

وعلى أضواء من سبق، يواصل ابن خلدون (ت 808هـ) التأكيد على هذه الرؤية، مُوضّحاً العلاقة الوثيقة بين امتلاك الملكة البلاغية وفهم الإعجاز القرآني على وجهه الصحيح، يقول: "واعلم أنّ ثمرة هذا الفن إنّما هي في فهم الإعجاز في القرآن، لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام، ومع الكمال فيما يختصّ بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه، وإنّما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربيّ وحصول ملكته، فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه، لهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاماً في ذلك، لأنهم فرسان الكلام وجهابذته، والدّوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحّه " (خلدون، 1981، صفحة 762).

إنّ الناضر في هذا النصّ سيلحظ بوضوح عمق الصلة بين البلاغة وفهم الإعجاز القرآني، فابن خلدون يشدّد على أنّ البلاغة لا يجب أن تُختزل في الإمام النظري بقواعد البيان، بل المطلوب تتجاوز ذلك لتكون أداة منهجية لفهم النصّ القرآني في أرقّ تجلياته، الفهم الحقيقي للإعجاز في نظره مرهون بقدرة المتلقّي على ملاحظة التلاؤم الدقيق بين معاني الكلام وسياقاته، والتمكّن من تدوّق التناسب المحكم بين اللفظ والمعنى، والأسلوب والمقام، وهذه المهارات لا تتأتّى إلا لمن اكتسب ملكة بلاغية راسخة، تؤهّله للنفاذ إلى أعماق البيان القرآني، وإدراك مواطن تفوّقه التي تعجز عنها الفطرة السليمة وحدها أو المعرفة القاعدية المجردة.

وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث، نجد أنّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قدّم رؤية متكاملة تعزّز ما قرره البلاغيون السابقون من أنّ إدراك الإعجاز القرآني لا يمكن أن يتحقّق إلا لمن امتلك ملكة لغوية وبلاغية تقارب ذوق العرب في فصاحتهم، فالتدوّق الحقيقي للبيان القرآني لا يتأتّى بمجرد المعرفة السطحية باللغة، بل يستلزم تعمقاً في خصائصها الأسلوبية، وتمرّساً بأدبها، حتى يكتسب المتلقّي حسّاً لغوياً يجعله مؤهلاً للتمييز بين النظم الإلهي المعجز وسائر أساليب البشر.

وقد لخص ابن عاشور هذا المعنى بقوله: "من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب فما عليه إلا أن يشتغل بتعلم اللغة وأدبها وخصائصها حتى يساوي أو يقارب العرب في ذوق لغتهم ثم ينظر بعد ذلك في نسبة القرآن من كلام بلغائهم ولم يخل عصر من فئة اضطلعت بفهم البلاغة العربية وأدركت إعجاز القرآن وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح " (عاشور، 1984، صفحة 1/394).

3. الإعجاز تجربة جمالية تتجاوز الحصر النهائي:

واضح من كلّ ما تقدّم الارتباط الوثيق بين الملكة البلاغية وفهم الإعجاز القرآني، فالمشتغلون بالدراسات القرآنية مجمعون على أن سرّ الإعجاز في القرآن الكريم ليس أمرا يمكن الإحاطة به كلياً أو نقله بين العقول بنفس الدقة والوضوح، فهو نوع يعلو على حدود الوصف المباشر، ويتجاوز القدرات البشرية المحدودة في التعبير أو الفهم التام، ومع ذلك، لا ينكر هؤلاء إمكانية التذوّق الجزئي لهذا الإعجاز، شريطة أن يكون المتلقّي ممن رسّخت لديه الملكة البلاغية، وتمكّن من أدوات البيان العربي.

وعليه، فإنّ من يمتلك هذه الملكة يكون قادراً إلى حدٍّ ما على النفاذ إل بعض مظاهر الإعجاز، مستنداً إلى معرفته العميقة بأساليب العرب، وإطلاعه الواسع على طرائق تعبيرهم ومواطن تميزهم البياني، إلا أنّ هذا الإدراك يظل محدوداً. كما قلنا. بجزئيات، ولا يمكن له أن يُحيط بكافة أبعاد الإعجاز التي تفوق الوصف والتحليل، وتتجاوز كل ما يمكن أن يُبلغ إليه من علم أو فهم بشري.

وفي ألمح هذه الحقيقة الدقيقة محمد عبد الله دراز بقوله: "أريد أن نبزّ للناس سرّ الإعجاز جملة؟ ذلك ما لا سبيل لنقله من نفس إلى نفس، ولا من حسّ إلى حسّ، وهل ينتقل طعم الشهد، ورائحة الورد، وحسن النغم بوصفها لغير من وقعت تحت حسّه وسبق الإحساس بها؟ بل نقول: هل يستطيع واجدها أن يصفها لنفسه وصفا شافياً ويحدّدها تحديدا تاماً؟..لئن كنت حقاً تستطيع أن ترجع إل نفسك، لقد وقفت إذن والله على باب الإعجاز وإن خفت عليك أسرار وأسبابه أن تحيط بها فإن كنت تطمع من وصف الواصفين في الوقوف على هذه الأسرار والأسباب جملة، فقد أتيت البيوت من غير أبوابها، وطلبت حاجتك عند غير أربابها " (دراز، د ت، صفحة 20).

فدراز يرى أن الإعجاز القرآني يحمل في طياته طابعا فريدا يتسم بالغموض والعمق، فهو أمر تستشعره النّفس البشرية وتشعر به بوضوح، إلا أنها تقف عاجزة أمام محاولة وصفه أو تحليله بشكل كامل ودقيق، بمعنى آخر إن الإدراك الحسي للإعجاز لا يعني القدرة على حصره أو التعبير عنه بلغة تفي بجميع جوانبه، وهو إدراك يفوق حدود التعبير اللفظي والتعليل العقلي.

وهو بهذا ينحو منحى بدران الفارسي حين سأل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال: " هذه مسألة حيف فيها عن المفتي وذلك أنه شبيه بقولك: ما موضع الإنسان من الإنسان؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان، بل متى أشرت إل جملته، فقد حققته ودللت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمحاوله، وهدي لقائله وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه وأسارره في كتابه " ¹.وينطبق هذا الوصف على القرآن، حيث لا يمكن الإشارة إلى جزء معين منه دون أن يكون ذلك الجزء بمثابة آية تحمل في طياتها معجزة فريدة، ودلالة واضحة على عظمة النص وإعجازه، وبذلك يظل الإنسان محدود الإدراك أمام

¹ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تقديم وتعليق: عبد القادر عطاء، دار الفكر، بيروت، ط1، 1408 هـ - 1988 م، ج2، ص109 .

الغايات العميقة والأسرار التي حفل بها كلام الله، إذ لا تقدر قدرات البشر على استيعاب كل أسرار هذا الكتاب العزيز. وهذا التصوّر الذي قرّره محمد عبد الله دراز يفضي إلى نتيجة منهجية بالغة الأهمية، مؤداها أنّ مقارنة الإعجاز لا يمكن أن تُختزل في تعداد وجوهه أو تصنيف أنماطه فحسب، بل لا بدّ أن تقوم على تربية الذوق، وصل الحسّ، وتنمية الملكة القادرة على التفاعل الحيّ مع الخطاب القرآني. فالإعجاز. في هذا المنظور. هو تجربة إدراكية شاملة، يتداخل فيها الحسّ والوجدان والعقل، وتتضافر فيها الدلالة مع الإيقاع، والمعنى مع النظم، واللفظ مع السياق.

ومن هنا يلتقي دراز مع ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في تنظيره لقضية النظم؛ إذ جعل سرّ البلاغة كامناً في العلاقات الدقيقة بين الألفاظ في سياقها، لا في المفردات منعزلة ولا في المعاني مجردة، بل في طريقة التأليف التي تتولّد عنها دلالات زائدة على مجموع أجزائها. وهذه الدلالات لا تُنال بمجرد معرفة القواعد، بل تحتاج إلى ملكة تُدرك الفروق الخفية، وتبصّر في وجوه التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير وما يترتب على ذلك من آثار معنوية.

إنّ هذا الطرح يؤكد على ضرورة إدراك حدود المعرفة البشرية في مواجهة النص القرآني، وفي الوقت ذاته يدعو إلى التواضع في فهم الإعجاز، مع الاعتراف بأن الملكة البلاغية هي الأداة التي تتيح للباحث الاقتراب من هذا الإعجاز، لكنها لا تفي بكشفه كاملاً، إذ يظل الإعجاز في جوهره من أسرار الله التي تتجاوز الإمكانيات البشرية. وبناء على ما تقدّم، يتضح أنّ إدراك الإعجاز القرآني هو أقرب إلى تجربة جمالية وذوقية تعيشها النفس وتنفعّل بها، كما ينفعّل الإنسان بجمال منظر طبيعي، أو عذوبة لحن موسيقي، أو دقة وزن شعري، فهذا الإدراك لا يقوم على التحليل الذهني الصرف، بل ينبثق من التفاعل الوجداني والتذوّق المباشر، وهو ما يجعل الملكة البلاغية شرطاً أساسياً للوصول إلى هذه المرتبة من الفهم، حيث تؤهّل صاحبها لاستقبال هذه المعاني الدقيقة والانفعالات البيانية التي لا تكتسب من خارج اللغة، بل من داخلها.

ومن هذا المنظور، يبدو جلياً أنّ ما ذهب إليه أمين الخولي من إمكانية حصر أوجه الإعجاز القرآني وتعليلها تعليلاً تاماً، أو تقديم وصف شامل ونهائي له، لا ينسجم مع طبيعة الإعجاز نفسها، ولا مع الآليات التي يتم بها إدراكه، فالإعجاز بطبيعته يتجاوز القدرة البشرية على الإحاطة الكاملة، ويدرك في بعض وجوهه من خلال الذوق والملكة والتجربة الشخصية أكثر مما يدرك عبّ القوالب التحليلية الجامدة. يقول في هذا الشأن: "إن القول بالتعليل وبيان الأوجه ليس إلّا الرأي القائل والمذهب الزائف وإن شاع وساد عند المتأخرين، ومما نغبط له أنّ الذي يبيّن فساده ويحمل على أصحابه إنما هو بطل من أبطال البلاغة القديمة وفارس مقدّم في ميدانها هو الإمام السكاكي. رحمه الله. فقد رفض القول بإمكان تعليل الإعجاز وبيان وجهه ونكب عن هذه الطريقة " (الخولي، 1931، صفحة 56).

وبناء على هذا القول، يظهر أن الإعجاز القرآني ليس أمراً يمكن إخضاعه كلياً للمقاييس العقلية الصرفة أو للأدوات النقدية التحليلية التقليدية، بل هو تجربة فريدة تتجلى لمن امتلك الذوق البلاغي والمملكة البيانية، دون أن يعني ذلك القدرة على تحديد معايير نهائية أو صياغة حدوده بصرامة علمية مطلقة.

ولعلّه من المستحسن التذكير هنا بأن البلاغة العربية لم تنشأ في فراغ، بل تأسست بداية كأداة معرفية وظّفت لإثبات إعجاز القرآن الكريم والبرهنة عليه، ثم ما لبثت أن اتجهت إلى أن تكون غايتها إثبات هذا الإعجاز ذاته، وهذه الغاية في سياق الدراسات الإسلامية لا تعلوها غاية؛ إذ مثلت نقطة التحول الكبرى في مسار تطور البلاغة ونضجها، حيث لم تعد مجرد ممارسة بيانية، بل أصبحت وسيلة تأويلية عميقة لفهم أسرار النص الإلهي.

وعلى ضوء ما تقدّم من كون البلاغة أداة تأويلية لفهم أسرار البيان القرآني، ينبغي التأكيد على ضرورة التمييز بين البلاغة بوصفها علماً ومنهجياً منضبطاً، وبين المملكة البلاغية باعتبارها قدرة ذوقية تحليلية، فالمملكة تتجاوز حدود التنظير العلمي، لتتصل بتجربة التدوّق الفردي والتمكّن البياني، وهو ما يجعلها شرطاً أساسياً في إدراك الإعجاز لا يمكن الاستعاضة عنه بالمعرفة النظرية وحدها.

ومن هذا المنطلق، يرى كثير من الباحثين أن علوم البلاغة لم تكن في أصلها علوماً لغوية مستقلة، بل وُلدت في أحضان الدراسات القرآنية بوصفها أدوات وظيفية تسعى لخدمة النص القرآني وتجلية مقاصده البيانية، ويظهر هذا بوضوح في نشأة علم المعاني، الذي يعدّ الأساس الذي تفرعت عنه علوم البلاغة الأخرى، حيث ظهر بداية تحت عنوان "دلائل الإعجاز"، أي باعتباره وسيلة تفسيرية تسعى إل الكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن، لا بوصفه علماً لغوياً له استقلال تام عن المجال الديني.

وفي امتداد لما سبق بيانه حول مركزية المملكة البلاغية في تلقي الإعجاز القرآني، ينبه الدكتور محمد أبو موسى إلى إشكالية معاصرة تتعلق بواقع التلقي في العصور المتأخرة، وهي أنّ جمهور المتلقين اليوم على اختلاف مستوياتهم التعليمية والثقافية لا يحوزون من أدوات اللغة سوى الحد الأدنى الذي يفي بحاجاتهم التواصلية أو المعيشية، دون أن يرقوا إلى مرتبة التدوّق العميق أو الإحاطة الواعية بجماليات العربية وخصائصها الأسلوبية. يقول: "يتوقف (أي إدراك إعجاز القرآن) على ملكة راسخة وذوق سليم في اللغة العربية، وأكثر الناس لا يملكون منهما إلّا ما لا بدّ منه في إقامة أسباب معاشهم ونوع علاقاتهم الثقافية بعضهم مع بعض، فلا مطمع أن يرتقي فهمهم لمدلول الإعجاز القرآني إل أكثر من عموم الثناء والإطراء، وهذا سبب يعود إل الضعف في الثقافة العربية" (رمضان، 1970). يظهر من هذا التحليل أن العائق الأكبر في طريق إدراك الإعجاز ليس النّص ذاته، بل هو راجع إلى ضعف المملكة اللغوية لدى المتلقي، وغياب التّكوين الذوقي العميق الذي يؤهله للنفاذ إلى أسرار البيان القرآني، فالقرآن لا يفهم في عمقه البياني بمنطق الترجمة أو الفهم العقلي الصّرف بل هو نصّ تذوقي، لا يتاح الوقوف على وجه إعجازه إلّا لمن امتلك ملكة لغوية تؤهله للمقارنة، والتقدير، والاستبصار.

ومن هنا، يتأكد مرة أخرى أنّ الكشف عن الإعجاز القرآني هو ثمرة من ثمار الملكة البلاغية التي تمكّن صاحبها من التذوق والفهم، وهي الملكة التي لا تنمو إلا في بيئة لغوية أصيلة، ومعايشة طويلة للنصوص الرفيعة، ووعي ناقد بأسرار اللغة العربية في استعمالاتها العالية.

إضافة إلى ذلك، فإن الكشف عن وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم يمثل بحقّ أسى ثمرات تحصيل الملكة البلاغية، وأرقى غاياتها، إذ به يدرك المتأمل مواضع التفرد، ويفهم سرّ التحدي، ويقف على مواطن الإعجاز في النظم والتأليف والتصوير، وكل ذلك لا يكون إلا بتلك الملكة التي تتشكّل من التمرّس العميق، والتذوق الرفيع، والوعي بالسياق والأسلوب والمعنى.

وعليه، فإن من رام فهم القرآن على وجهه، أو طمح إلى مقارنة إعجازه، لا بد له من تحصيل هذه الملكة، التي بها يفتح له باب الإدراك، ويتبيّن له السبيل إلى التذوق، فتتحول البلاغة لديه من علم يتلقّى إلى ذوق يعاش، ومن معرفة نظرية إلى إدراك شهوديّ يتلمّس به مواضع الإعجاز كما تلمسها العرب الأوائل. وهكذا يتبيّن، في ضوء هذا المسار النظري والتحليلي أنّ الإعجاز القرآني حقيقة بيانية حيّة، تتجلّى بقدر ما يتهيأ لها الوعي، ويصفو لها الذوق، وتترسّخ لها الملكة. فالقرآن لا يهب أسرار له لمن يكتفي بظاهر المعرفة، ولا يكشف وجوه إعجازه لمن يقف عند حدود القاعدة والمصطلح، وإنما يفتح آفاقه لمن أحسن الصحبة مع اللغة، وطال مقامه في رياض البيان، حتى صارت البلاغة فيه سجية.

ومن ثمّ، فإنّ الملكة البلاغية تغدو في هذا السياق الجسرَ الضروري بين النصّ الإلهي والمتلقي، بها ينتقل الفهم من مستوى الإدراك العام إلى مرتبة التذوق العميق، ومنها يتولّد ذلك الإحساس الخفيّ الذي يشهد للإعجاز شهادة وجدان قبل أن يقرّره العقل. فهي التي تمكّن الباحث من ملازمة التناسب العجيب بين اللفظ والمعنى، واستشعار الانسجام الدقيق بين الأسلوب والمقام، وتلمّس مواطن التفوّق التي تعجز العبارة عن حصرها، ويقصر التحليل عن الإحاطة بها.

وعلى هذا الأساس، يظلّ الإعجاز القرآني أفقًا مفتوحًا لا يُغلق، وتجربةً متجددة لا تنقضي، كلّما ارتقت الملكة اتّسعت الرؤية، وكلّما صفا الذوق تجلّت معاني لم تكن في الحسبان. وليس في ذلك نقص في البيان، بل كمال له، إذ إنّ سرّ الإعجاز إنما يكمن في كونه أوسع من أن يُستوعب، وأعمق من أن يُستنفد، وأسى من أن يُختزل في تعريف جامع أو تحليل نهائي.

ومن هنا تنتهي هذه الدراسة إلى أنّ البلاغة في جوهرها الأصيل ملكة تُكتسب، وتجربة تُعاش، وأنّ الغاية القصوى من تحصيلها إنما هي النفاذ إلى بعض أنوار الإعجاز القرآني، فمن رزق هذه الملكة، واقترب من أسرار البيان، أدرك من الإعجاز على قدر طاقته، ووقف على بابه وقوف المتأمل الخاشع، ليظلّ كلام الله . كما كان دائمًا . معجزة تتجدّد، وسرًّا يتجلّى، وبيانًا يعلو على كل بيان.

4. خاتمة:

خلصت هذه الدراسة، بعد استقراء أقوال البلاغيين قديماً وحديثاً وتحليل تصوّراتهم، إلى جملةٍ من النتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

. تبين أنّ الإعجاز في الخطاب القرآني يتجلّى . على نحوٍ أصيلٍ ومستمرّ. في بنيته البيانية ونظمه الأسلوبي، وأنّ هذا الوجه هو الحاضر في كلّ تركيبٍ وسياق، بما يجعل البلاغة المدخل الأقوم لفهم سرّ التفوّق القرآني.

. أكّدت نصوص العلماء من أمثال أبو هلال العسكري، والباقلاني، وابن سنان الخفاجي، وابن خلدون، ومحمد الطاهر بن عاشور، أنّ التمكن من علوم البيان وتحصيل الملكة الدوقية شرطٌ أساسٌ لفهم الإعجاز فهماً واعياً. فالمعرفة القاعدية وحدها لا تكفي ما لم تتحوّل إلى ملكةٍ راسخةٍ تمكّن من استشعار دقائق النظم. ظهر أنّ تفاوت الناس في فهم الإعجاز مرده إلى تفاوتهم في تحصيل الملكة البلاغية؛ فكلّما تعمّق التكوين اللغوي واتّسع الذوق، انكشف من وجوه الإعجاز ما لا يتجلّى للنظر السطحي.

. انتهت الدراسة إلى أنّ الإعجاز القرآني، وإن أمكن تلمّس بعض وجوهه وتحليل مظاهره، يظلّ أوسع من أن يُستوعب استيعاباً كاملاً أو يُحاط به تعليلاً نهائياً. فهو أقرب إلى التجربة الجمالية الحيّة التي تُدرك بالمعايشة والذوق، كما أشار إلى ذلك محمد عبد الله دراز، إذ يبقى في النصّ من الفيض البياني ما يتجاوز طاقة التحديد النظري الصارم.

5. قائمة المراجع:

- الباقلاني، أ. ب. (1977). *إعجاز القرآن*. مصر: دار المعارف.
- البوطي، م. س. *الكلمة القرآنية وسرا الإعجاز فيها*، مجلة العربي الكويتية، ع144، 1970م، ص 19. 20.
- الحفاجي، أ. س. (1982). *سر الفصاحة*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الخولي، أ. (1931). *البلاغة وأثر الفلسفة فيها*. القاهرة: الجمعية الجغرافية الملكية.
- العسكري، أ. ه. (1419 هـ). *الصناعتين*. بيروت: المكتبة العصرية.
- العلوي، ي. (1423هـ). *الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق علوم الإعجاز*. بيروت: المكتبة العصرية.
- خلدون، ع. أ. (1981). *العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر*. بيروت: دار الفكر.

دراز، م. ع. (د ت). *النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم*. القاهرة: مخطوط.

رمضان، م. س. (1970). *الكلمة القرآنية وسرا الإعجاز فيها*، البوطي. مجلة العربي الكويتية 19، 20.

عاشور، م. أ. (1984). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.